العَلْمانيةُ ومنظومةُ التعليمِ الدوليةِ

إعداد

د/ محمد زين العابدين علي حنفي عميرة
(الأستاذ المساعد بجامعتي القاهرة والطائف/٢٠٢١م)

drzaien@yahoo.com

مقدمة:

يرى علماءُ التربية والباحثون المعاصرون أن مفهوم التربية في صدر الإسلام، كان يتطوّر بتطوّر ظروف المجتمع. وكانت أساليبُ التعليم المرافقة لتطبيق المنهج التعليمي ، تؤكد استمرارية التعليم في المجتمعات الإسلامية التي تتأسس على القاعدة التالية: الناسُ عَالِمٌ ومُتعلِمٌ، وما بين ذلك همجٌ لا خير فيه. وكان استمرارُ طلب العلم، صفةً ملازمةً لكل من انتسب لميدان العلم.

وقد انعكسَ أولُ مظهرٍ للتطور التربوي في العصر العباسي على مفهوم التعليم ومنهاجه. ذلك لأنَّ مفهومَ التعليمِ ارتبط بطبيعة العصر وظروف المجتمع. وقد مثَّلَ هذا الاتجاه أئمةُ المذاهب، فأبوحنيفة مثلًا دعا إلى تنظيم منهاج يجعل المتعلم يعيش عصره فكرًا وثقافة، ويسلحه بما يجابه به التحديات التي تواجهه. ولم يقف أبو حنيفة عند التقرير النظري، وإنما عمل على ترسيخ مفاهيمه في نفوس تلاميذه الذين تعرضوا للموقف نفسه. وبرأيه أنَّ على المتعلم أن يطَّلِعَ على تيارات عصره، ومعرفة الخاطئ من الصحيح، حتى يتخلص من الجهل وحتى لا تنزل به شبهة مما ينزل بغيره، وألا يقتصر على تعلم ما يعتقد المتعلم أو المعلم أنَّه الحق، لأنَّ ذلك يجعل العلم شبيهًا بالجهل. فالْحقُّ لا يُعرف إلاّ بمعرفة الباطل، والصوابُ لا يتوصل إليه إلا بالوقوف على الخطأ. (الخليج/ ٢٠٠٩)

ولم يظهرْ في صياغة مفهوم العَلْمانية – خاصةً في الفكر العربي – الإشارةُ إلى وشيجة الارتباط بين تطور العقل الفلسفي الغربي ، وظهور العلمانية وتكونها، وكيف تحولت إلى أنساق كبرى ، مقصية للإله ، والقيمة ، والمرجعية المتجاوزة ، والناظم المنهجي؟.

لذا قَلَّ الردُّ على العلمانية في مفاهيميتها ، وفي بنيتها وتركيبيتها ، وفي أنظمة الحياة الملازمة لها وانعكاسها على أفراد المجتمع ، وقلَّما نجدُ موقفًا نقديًا مُتوازنًا ، يَنفُذُ إلى عمقها ويقومُ بخلخلتها في أساس تركيبها ، وفي مآلات تنزيلها ، والمفارقة بينها وبين العدالة والخير والمساواة.(المسيري والعظمة/ ٢٠٢٠ ، ص ١٥٣ ـ ١٥٥)

ومن هذا المنطلق تسعى الدراسةُ الراهنةُ إلى تَعرُّفِ أثرِ العَلْمانيةِ في المنظومة التعليمية على بناء المُخرجات التعليمية ومدى انعكاس ذلك على المجتمع الإقليمي والدولي المعاصر.

الدراساتُ السابقةُ:

لم تُشرْ أيةُ دراسةٍ إلى الظواهر السلبية المصاحبة للعلمانية ، وأثرها على المستويات الحياتية المتنوعة للفرد داخل المجتمع وخارجه ، وصلتها بالدولة الحديثة وفكرة المواطنة

والمدنية. ما عدا دراسات عبد الوهاب المسيري الذي يُعدُّ أبرز مُنظِّري الرؤية الوجودية التوحيدية ،والمُؤسسين لمقولاتها المعرفية وبُناها المنهجية ، وتوظيفاتها التصديقية على مدارس أخرى وتجاربها المعرفية ، فقد تمكن من دراسة العلمانية في مشروع تحليلي ضخم ، تحت عناوين عدة ، منها: المجلدان النظري والتطبيقي للعَلْمانية الجزئية والشاملة ، والفلسفة المادية وتفكيك الإنسان ، والحداثة وما بعد الحداثة ، والعلمانية تحت المجهر. فأورد بالتفصيل مشكلات التعريف وأزمة علم الاجتماع الغربي والعربي ، وفشلهما في تكوين مفهوم مساوٍ لحقيقةِ العلمنة وآلياتها المُركَّبة ، ونشأتها البنيوية ، وتحركها الغائر ، وعملها الداخلي الممتد إلى جذور الوجدان البشري ، وامتدادها وتحولها إلى لازمة مُولِدة للإمبريالية ، لذا ستعتمد الدراسة الراهنة على رؤيته في تقييم العَلْمانية في ضوء المنهج المعرفي التوحيدي وأثرها على مُخرجات المنظومة التعليمية الدولية.

مشكلةُ الدراسةِ:

وتتحدد مشكلةُ الدراسةِ الراهنة في التساؤلات البحثية التالية:

١ ـ ما مفهومُ العَلْمَانيةِ؟

٢ ـ ما عناصرُ المنظومة التعليمية ومكوناتُها؟

٣ ـ هل العَلْمانيةُ مقصيةٌ لله خالق كل شيء؟

٤ ـ هل يجوزُ إقصاء ملك الملكوت عن إدارة شؤون مُلكه؟

٥ ـ هل الإسلامُ جاء لقومٍ بعينهم دونَ غيرهم أم جاءَ كافةً للعَالَمِينَ إنسهم وجِنِّهم؟

٦ ـ ما أثرُ العَلْمانيةِ في المنظومة التعليمية الدولية على بناء المُخرجات التعليمية ومدى انعكاس ذلك على المجتمع الإقليمي والدولي المعاصر؟

وينكنُ الإجابة عن هذه التساؤلات على النحو التالي:

أولًا – مفهومُ العَلْمانيةِ لُغةً واصطلاحًا:

١ ـ مفهومُ العَلْمانيةِ في المُعجم العربي:

إذا تَتَبَّعِنَا مواردَ الاختلافِ حول مفهوم العَلْمانية لُغةً لا يفي الموضوعَ بما نقصد إليه ، لأنها كثيرةٌ ، لذا نَكْتفي منها بأصل الاشتقاق ، وما وقع بين المفكرين حوله ، فليس معلومًا على وجه الدقة كيف دخلت عبارةُ العلمانية على اللُغة العربية ؟ وكيف انتشرت في الآداب السياسية والاجتماعية والتاريخية العربية المعاصرة (العظمة/١٩٩٨) ، مع وجود بعض المعاني والمصطلحات الموظفة بطريقة قريبة ، كالمدنية والزمانية والمكانية والدنيوية واللادينية... لكن أشهر استعمال لها كان بصيغتين: العَلْمانية والعِلْمانية، فلقد كان قياس

المصدر هو العَالَمية أو العَالْمانية. وبصورة غير القياسية العِلْمانية ، وهي التي قُدِّرَ لها الشيوع والانتشار.(عمارة/٢٠٠٣)

مع أن الأصل الصحيح هو بالمعنى الأول نسبة إلى العَالَم ، وليس بمعنى العِلْم.على نقيض ما يراه بعضُ الدارسين لظاهرة العلمانية.فمن غير الواضح أيضًا كيف تمَّ اشتقاقُها؟ وهل كانَ الاشتقاقُ من العِلْم(عِلْمانية بكسر العين) أم من العَالَم (عَلْمانية بفتح العين) بناء على اشتقاق غير سليم؟ والأرجح أن الاشتقاق الأول هوالصحيح.(العظمة/١٩٩٨، ص ١٧)

..."عَلْمانية ، هذا المصطلح نسبة إلى عَالَم – العَالَم ، على غير قياس..".(دواق/ ٢٠١٤)

فكان الاختيارُ الثاني هو الأرجح ، لاتصال المستعمل بالمعنى الحضوري المباشر البعيد عن المتعاليات الملاصق للعَالَم. "العَلْمانية نسبة إلى العَالَم (الحياة ككل) ، وليس إلى العِلم. في اللُغة العربية واللُغات الإفرنجية الأصل واحد ، ففي اللُغة العربية لفظ العَلْمانية مشتق من عَلَم أي العَالَم. ومن ثَمَّ يتبدى تفاوت واضح بين المفكرين العرب والمسلمين ، وسبب ذلك يرجع إلى غياب دقة النقل عن المصدر الأول ، ثُمَّ الإسقاط المتعسف لمضامين المفاهيم في مرجعياتها الأصلية على واقع ثقافي آخر يتباين تمامًا معها.

ومن علامات التفاوت في صياغة مصطلح العَلْمانية كَمُّ النقل المترجم إلى اللسان العربي وقواعده ، وفارقية الاستعمال عند كل مفكرٍ ، ومقصوده منها ، وموقعها ضمن استراتيجيته التحديثية أو الإصلاحية ، وهل يعتبرها بديلًا أم مكملًا أم وافدًا؟ وتوجد في المعجم العربي ترجماتٌ مختلفةٌ على هذا النحو:

(١) العِلْمانية (بكسر العين) نسبة إلى العِلْم.

(٢) العَلْمانية (بفتح العين) نسبة إلى العَلم بمعنى العَالَم.

(٣) الدنيوية ،أي الإيمان بأنها هي الحياة الدنيا ولا يوجد سواها.

(٤) الزمنية ، بمعنى أنَّ كل الظواهر مرتبطة بالزمان وبالدنيا ولا علاقة لها بأية ما ورائيات.

(٥) وتُستخدم أحيانًا كلمة لائيك أو لائيكي ولائكية ، خصوصًا في المغرب ولبنان دون تغيير. (pratique: Italie ,juin/2003)والمسيري/٢٠٢٠ ، ص ٥٩ - ٦١.

ومن المُسميات التي وردت قريبة من المعنى المتداول إلى الآنَ ، ما عَنْوَنَ به (جمالُ الدين الأفغاني) رسالته في نقاش العلماء المكتفين بالزمان في تفسير الطبيعة وظواهرها ، فكانت الرسالةُ في الرد على الدهريين، حيثُ استخدم مصطلح الدهرية بمضامين فيها جدة ،وإن تناقلته الثقافةُ الإسلاميةُ الأصولية في الماضي ، استنادًا إلى قوله تعالى: {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا

حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ}.(الجاثية، آية ٢٤)

٢ – *مفهومُ العَلْمانيةِ في القاموس الغربي:*

من معاني العَلْمانية لُغةً في سياق الجذور اللُّغوية الغربية، ما نجمله في التالي:

-Séculaireوهي صفة مشتقة من اللاتينيةSaeculum ، بمعنى العصر أو الجيل.(العظمة ، ص ١٨) فقد أورد معجم علم الاجتماع المعاصر لمؤلفه (توماس فورد هولت) ثلاث مواد لها صلة بمصطلح العَلْمانية ، هي: علمانيsecular ، وعلمنة secularization ، ومجتمع علمانيsecular society ، وأوضح المعجم أنكلمة علماني لها عدةُ معانٍ: الدنيوي- غير الروحي – غير الديني ... نقيض المُقدس".(أركون/ ١٩٩٦ والمسيري/٢٠٢٠ ، ص ٦٣) ومن الملاحظِ على هذا التعريف أنَّه يتناول العلمانية في أحوالٍ ثلاث في ضوء سياق الوصف والانطباع بها ، في نطاق العمليات المركبة المتصلة بها ، كوظيفة تثقيفية تعليمية تربوية ، وكامتداد عام لنتاج العملية السابقة ، فتصبح عملية تعمل على تكوين خصائص الأفراد جميعًا.

ولها اشتقاقٌ آخر في الأصل اللاتيني ، وهي موندوسMUNDUS . وتعني المكان ، فالاستخدام الأول متصل بالزمان والثاني بالمكان ، فيصبح معناها اللُّغوي الحضور المكاني والزماني.وقد أُعتمدتSECULARISME ، عمومًا في البلدان البروتستانتية ، لاتصالها غالبًا باللُّغة الإنجليزية.

أما في البلدان الكاثوليكية ، فقد استخدمت عبارة اللائكية.. Laïcité . المشتقة من العبارتين اليونانيتينLAOS ؛ أي الناس ، وlaikos؛ أي عامة الناس في تميزهم عن الإكليروس.(أركون ، ص ٩)

ويتحددُ مفهومُ العَلْمانية اصطلاحًا بين انتماءات المفكرين ومعينهم الذي يستقون منه ، فليس خافيًا ، آلية التعريف تتجاوب والرؤية الوجودية العامة ، والخلفية النظرية لكل مفكر ، وأساليبهم في الفهم والتحليل والنقد ، لذا نجد المعنى ليس واحدًا ، وهو متأثر بأيديولجيات كل منهم. فيرى (أركون) أنَّ "العَلْمَنةَ بالنسبة له هي موقفٌ للروح ، وهي تناضل من أجل امتلاك الحقيقة أو التوصل إلى الحقيقة. ويقول: "أنا عضو في التعليم العام الفرنسي منذ حوالي ثلاثين عامًا، وعلى هذا الصعيد فأنا مُدرس عَلْماني يُمارس العَلْمنة في تعليمه ودروسه ، وهذا يُشكل بالنسبة لي نوعًا من الانتماء والممارسة اليومية في آنٍ معً. وقد انتهى الأمر بي أخيرًا إلى تلك الممارسة والقناعة الفكرية التي تقول بأنَّ العَلْمنة هي ،أولًا ، وقبل كل شيء ، إحدى مُكتسبات وفتوحات الروح البشرية على التجربة الوجودية

للإنسانية ككل ، وفضاءات تحركها الثقافي والتاريخي والحياتي - حتى بيولوجيًا - هو بلوغ الحقيقة ، (أركون ، ص ٩ و ١٠) لكن أية حقيقة؟ فالروحُ عنده تسعى بالعَلْمانيةِ إلى بلوغ الحقيقة ويتساءل في تيهه عن أية حقيقة؟ ، فليعلم (أركون) أنَّ الحقيقةَ الثابتةَ التي لا ريب فيها والتي هو في تيهٍ وغفلةٍ عنها هي وجود الله خالق كل شيء في هذا الوجود الكوني والقائم بشؤونه والمتصرف فيه والمهيمن عليه.

ويتناولُ(المسيري) تحليلَ فكرة العَلْمانيتين الجزئية والشاملة من خلال التعريفات التي أوردها في كتابه على النحو التالي:

(١) العلمانية الجزئية:"هي رؤيةٌ جزئية للواقع (أي إجرائية) لا تتعامل مع أبعاده الكلية والنهائية (المعرفية) ، ومن ثَمَّ لا تتسم بالشمول ، وتذهب إلى وجوب فصل الدين عن عالم السياسة وربما الاقتصاد ، وربما بعض الجوانب الأخرى من الحياة العامة ، وهو ما يُعبر عنه أحيانًا بعبارة (فصل الدين عن الدولة). ومثل هذه الرؤية الجزئية تلزم الصمت بشأن المجالات الأخرى من الحياة ، كما أنها لا تُنكِر بالضرورة وجود مطلقات وكليات أخلاقية وأنسانية وربما دينية ، أو وجود ماورائيات وميتافيزيقا ، ولذا لا تتفرع عنها منظومات معرفية أو أخلاقية ، وهي رؤية محددة للإنسان ، فتراه إنسانًا طبيعيًا/ ماديًا في بعض جوانب من حياته وحسب ، ولكنَّها تلزم الصمت فيما يتصل بالجوانب الأخرى من حياته ، وفيما يتصل بثنائية الوجود الإنساني وَمَقْدِرَة الإنسان على التجاوز ، ولذا فهي لا تسقط في الواحدية الطبيعية/ المادية ، بل تترك للإنسان حيزه الإنساني يتحرك فيه (إن شاء).

(٢) العَلمانية الشاملة: رؤية شاملة للعالم ذاتَ بُعدٍ معرفي (كلي ونهائي) تحاول بكل صرامة تحديد علاقة الدين والمطلقات والماورائيات (الميتافيزيقية) بكل مجالات الحياة، وهي رؤية عقلانية مادية، تدور في إطار المرجعية الكامنة والواحدية المادية التي ترى مركز الكون كامن فيه ، غير مفارق أو متجاوز له، وأن العالم بأسره مكوَّن أساساً من مادة واحدة، ليست لها أية قداسة ولا تحوي أية أسرار، وفي حالة حركة دائمة لا غاية لها ولا هدف، ولا تكترث بالخصوصيات أو التفرد أو المطلقات أو الثوابت، هذه المادة تشكل كُلًا من الإنسان والطبيعة ، ومن ثَمَّ فالعلمانيةُ الشاملةُ رؤيةٌ واحدية طبيعية مادية تُصَفِّي الثُنائيات فتلغي الحيز الإنساني تمامًا ، إذ لا يوجد فيها مجال إلا لحيز واحد هو الحيز الطبيعي/ المادي.

وبعد أن تصل المتتالية العَلْمانية الشاملة إلى التحقق في معظم حلقاتها ، تُصَفِّي الثنائيات ، وتُصَفِّي بذلك تركيبة الإنسان ومقدرته على التجاوز (تجاوز الطبيعة/ المادة وذاته الطبيعية/ المادية) فيختفي الإنسان الفرد ، الحُر ، الواعي ، المسؤول أخلاقيًا واجتماعيًا ،

ويذوي كيانه كمقولة مستقلة عن عالم الطبيعة/ المادة ، ويصبح جزءًا لا يتجزأ منها ، ويُنْظَرُ إليه باعتباره كائنًا أُحادي البُعد ، بسيطًا ، ومع إنكار تركيبة الإنسان ومقدرته على التجاوز تسود الواحدية المادية ، وتُنزَع القداسة عن العالم (الإنسان والطبيعة) ، فيسقط في قبضة الصيرورة المادية ، ويظهر الإنسان الطبيعي الذي يُعرَّف في ضوء أبعاده واحتياجاته المادية (الدوافع الاقتصادية أو الجسمانية) ، حدوده هي حدود المادة ، أهدافه وغاياته وأخلاقه مادية ، سلوكه وتطلعاته وأشواقه مادية ، لا توجد مسافة تفصل بينه وبين الطبيعة/ المادة ، ومن ثَمَّ لا يوجد حيز إنساني مستقل يتحرك فيه الإنسان بقدرٍ من الاستقلال والحرية.

ويرى أنَّ العلمانيةَ الشاملةَ والإمبرياليةَ صنوان ، فالعلمانية الشاملة هي النظرية ، والإمبريالية هي الممارسة. فالإمبريالية في الداخل الأوربي تأخذ شكل الدولة العلمانية الرشيدة (الملكيات المُطلقة – الدول الديموقراطية – الحكومات الشمولية).

والإمبريالية في بقية العالم (أي في الخارج) أخذت أشكالًا كثيرة (الاستعمار التقليدي – الاستعمار الاستيطاني – الاستعمار الإحلالي – الاستعمار الجديد – النظام العالمي الجديد) ، وجوهر إمبريالية الخارج هو فرض الواحدية الطبيعية/ المادية على بقية المجتمعات الإنسانية وترشيدها في الإطار المادي لصالح المجتمعات الغربية ككل".(المسيري والعظمة/٢٠٢٠ ، ص ١١٩ – ١٢٦)

خلاصةُ القول: يرى (المسيري) أنَّ هناك مفهومين للعَلْمانية في دائرتين متداخلتين.

الأولى: العلمانية الجزئية وهي الدائرة الصغيرة ،وتعني فقط فصل الدين عن الدولة ، وهي بالتالي لاتنكر الدين ولكنها تفهمه كأشواق روحية تتيح لكل فرد أن يتصل بخالقه بالطريقة المناسبة. والثانية: العلمانية الشاملة وهي الدائرة الأوسع وتُحيط بالأولى ، وهي تعني فصل الدين عن الدولة ، وعن حياة الإنسان في جانبها العام والخاص بحيث تنزع القداسة، ويتحول العالم والإنسان والطبيعة إلى مادة يمكن توظيفها لصالح الأقوى،وللاستمتاع بمباهج الحياة ما أمكن،وتؤدي العلمانية الجزئية حتمًا وبلا شك إلى العلمانية الشاملة في نهاية المطاف ومِن ثَمَّ يَضيعُ الإنسان الحُر المسؤول.

ثانيًا - منظومةُ التعليمِ:

تتكونُ منظومةُ التعليم من خمسة عناصر ومكونات أساسية ، وهي:

١ – *المُدخلات: Inputs*

وتشملُ جميعَ العناصر الداخلة في نظام التعليم سواء كانت بشرية ، أو مادية ، أو معنوية ، كأهداف نظام التعليم وبيئة النظام التعليمي ، والمُتعلم بكافة خصائصه وسماته ، والمُعلم

بكافة قدراته وإمكاناته ، والمنهج بأهدافه ومحتواه وأيدولوجياته ، وأساليب تدريسه ووسائله التعليمية وتقنياته ، وأنشطته الصفية وغير الصفية ، وأساليب التقويم ، وكذلك الأفراد المعاونين والفنيين في العملية التعليمية.

٢ – *العمليات: Processes*

وتشملُ جميعَ الأساليب ، والتفاعلات ، والعلاقات والأنشطة التي تهدف إلى تحويل مُدخلات منظومة التعليم بصورتها الأولى إلى مُخرجات تتناسب وأهداف تلك المنظومة ، وخلال هذه المرحلة يتم القيام بالواجبات والإجراءات التي يتحقق من خلالها وصول النظام إلى أهدافه. ويتوقف نجاح النظام التعليمي على كفاءة عملياته وقدرة هذه العمليات على الاستفادة من مُدخلات النظام بالقدر المناسب ، ومن ثَمَّ إخراج النتائج والمُخرجات المرغوبة لهذا النظام.

وتدخلُ طرقُ وأساليبُ واستراتيجياتُ التعليم والتعلم ، والإدارةُ التعليمية والمدرسية ، وعملياتُ التقويم في نطاق عمليات النظام التعليمي.

٣ – *المُخرجات: Outputs*

وتشملُ الإنجازات والنتائج النهائية التي يُحققُها النظام التعليمي متمثلة في الأهداف التي تحققت لهذا النظام ، ومدى انعكاس تلك الأهداف على نمو المتعلم عقليًا ، ومهاريًا ، ووجدانيًا ، وأَيْدُولُوجِيًا.

والمُخرجاتُ هي الناتج الفعلي لعمليات أية منظومة تعليمية ، حيثُ تتحدد تلك المُخرجات على ضوء أهداف النظام ووظائفه ، وتتوقف جودةُ المُخرجات على: نوعية المُدخلات ، ومستوى دقة العمليات الخاضعة لمعايير علمية وموضوعية سليمة وصحيحة. وتتركزُ مُخرجاتُ النظم التعليمية عمومًا في المُخرجات البشرية متمثلة في الأفراد خريجي المنظومة.

٤ – *التغذية الراجعة: Feed Back*

وتشملُ المعلوماتِ والبيانات المتعلقة بعناصر النظام التعليمي عمومًا والتي يتمُّ من خلالها إجراء أية تعديلات أو توافقات ، أو تطويرات في هذا النظام، وغالبًا ما يتمُّ الحصول على هذه المعلومات والبيانات من خلال وصف مُخرجات النظام وتحليلها في ضوء معايير علمية وموضوعية سليمة وصحيحة مستقاة من أهداف النظام. بعبارة أخرى فإن التقويم في أي نظام تعليمي هو الذي يعطي المؤشرات على مدى تحقق أهداف هذا النظام وإنجازها ، وهو الذي يبين الإيجابيات والسلبيات في أي جزء من أجزاء النظام تمهيدًا لاتخاذ القرارات والإجراءات المُناسِبة للتغلب على السلبيات. والتغذيةُ الراجعةُ في أي نظام تعليمي تشملُ:

(أ) تقويمُ مُدخلاتِ النظام:
وهو يهدف إلى جمع معلومات عن جميع أنواع المُدخلات الداخلة للنظام التعليمي ، وتحليلها للعمل على انتقاء أفضل المُدخلات وتحسين نوعيتها.
(ب) تقويمُ عملياتِ النظام:
ويهدفُ إلى مراقبة عمليات النظام التعليمي ، وتحديد مدى تفاعل وترابط وتكامل واستمرار العمليات ، وتحديد الصعوبات التي قد تواجه سير العمليات وتفاعلها.
(ج) تقويمُ مُخرجاتِ النظام:
ويهدفُ إلى تحديد التغيرات التي حدثت في مُخرجات النظام التعليمي الفعلية ، وذلك من خلال نموذج مُخرجات معياري مشتق من أهداف النظام الذي يحدد إلى أي مدى تحققت الأهداف؟ وبأي مستوى؟ ، ومدى التعديلات المرغوبة التي أحدثها النظام في سلوك المُتعلم وانعكاس ذلك على البيئة الحياتية والمجتمع الإقليمي والدولي.

٥ – *بيئةُ النظامِ: System environment*

وتشملُ الوسطَ المحيط بأي نظام تعليمي من: أبنية تعليمية وأثاث وتجهيزات تعليمية. كما تشمل الظروف الاجتماعية والاقتصادية ، والسياسية ، والثقافية ، والمادية المحيطة بالنظام. وكذلك ظروف الطقس ، والمُناخ ، والإضاءة المحيطة بموقع المؤسسات التعليمية ... وغير ذلك من العوامل.
ويرى البعضُ أن منظومة التعليم تتكون فقط من المكونات الثلاثة الأولى (المُدخلات ، والعمليات ، والمُخرجات). أما التغذية الراجعة وبيئة النظام فهما عاملان مؤثران على المنظومة أكثر من كونهما عناصر أو مكونات للمنظومة.
وأخيرًا يُمكنُ القول: إنَّ المنظومةَ مجموعةٌ من المكونات والعناصر المترابطة والمتفاعلة التي تعمل مشتركة معًا من أجل تحقيق أهداف محددة وغايات مشتركة . ثُمَّ يتمُّ مُعالجتُها لإنتاج مُخرجات معينة ومحددة للبيئة .أي أن النظام مجموعة من المكونات المترابطة في كلٍ واحد ، بينها علاقات تفاعلية منظمة وعلاقات تبادلية مع النظم الأخرى لغرض بلوغ هدف أو مجموعة أهداف محددة.(صبري/ ٢٠١٠ ، والعبيدي/ ٢٠١٨ ، وشاكر/٢٠٢٠)
وجديرٌ بالذكر في هذا الصدد أنَّ أيةَ منظومةٍ بشرية قد بُنِيت على منوال منظومة الكون الذي خلقه الله فأبدع في خلقه ، وشتان بين منظومة الكون والمنظومات البشرية أيًا كانت ، فالأولى مُحْكَمَةُ البنيان كاملة لا يعتريها النقص ولا تحتاج إلى التعديل أو التغيير أو التطوير. أما المنظومات البشرية فيعتريها النقص وعدم الكمال وتحتاج من وقت لآخر إلى التعديل والتغيير والتطوير إذا حادت عن منهجِ الله وشرائعِه الذي أعدَّه لصلاح البشرية

جمعاء ، فخالق البشر هو أدرى بما يُصْلِحُهم ويُقَوِّمهم لتنجحَ منظوماتهم التي قَنَّنُوهَا لحياتهم الأرضية.

ثالثًا ـ عَالَميةُ الإسلامِ وليستُ عَلْمَانيةُ العصر:

عندما خلقَ اللهُ الكونَ وأبدع ما فيه جعلَ فيه ما يُصْلِح البشرية ويرشدهم في حياتهم فأنزل كُتبًا سماوية ليعبدوه حقَّ العبادة وينظم حياتهم ، وأنزل القرآنَ الكريمَ إلى السماء الدنيا لِيُضِيء به حياةَ الإنس والجن ، ثُمَّ نَزَلَ مُنجَّمًا ومفرَّقًا على خاتم الرسل والأنبياء مُحمد بن عبد الله ﷺ ليواكب الأحداث والوقائع ويُجيب عن تساؤلات البشر وينظم الحياة ويحقَّ الحقَ ويُبطلَ الباطلَ كما يريدُ اللهُ الخالق. فَآمَنَّا بالله وملائكته وكُتبِه ورسلِه {آمنَ الرسول بما أُنزِلَ إليه من ربِّهِ والمؤمنونَ كُلٌ آمنَ بالله وملائكتِهِ وكُتبِه ورسلِهِ لا نُفرِّقُ بينَ أحدٍ من رُسُلِهِ وقالوا سمعنا وأطعنا غُفْرَانكَ رَبَّنَا وإليكَ المصيرُ}.(البقرة، الآية: ٢٨٥)

ذلك القرآنُ الكريمُ كتابٌ لا ريبَ فيه من رب العالمين هدى للمتقين مصداقًا لقوله تعالى: {الم ، ذلك الكتابُ لا ريبَ فيه هُدًى للمُتقين} (البقرة، آية: ١ و ٢) وقوله تعالى: {الم ، تنزيلُ الكتابِ لا رَيْبَ فيه مِنْ رَبِّ العالمينَ}(السجدة، آية: ١و٢). وقد جاء القرآن الكريم شاملًا ومكملًا لما جاءت به الأديان من قبله ومُدَعِمًا لها من وحدانية الله وعبادته ، فأكملَ الأحكام والشراءع التي نقصت والتأكيد عليها لتسير الحياة وفق منهج الله يقولُ عزَّ من قائل: {... مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِنْ شَيءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}.(الأنعام ، الآية: ٣٨)

وقد جاءَ مُحمَّدٌ بن عبد الله ﷺ بمنهج الله (القرآن الكريم) كافةً للعالمينَ (إنسهم وجِنِّهم) ليكون به رحمةً للعالمين {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}(الأنبياء، الآية: ١٠٧) ، فالقرآنُ الكريمُ يصلحُ لكل زمان ومكان فلم يأتِ لقومٍ بعينهم دون غيرهم ليعبدوا الله ويوحدوه ويأخذوا بأحكامه وتشريعاته في جميع مناحي حياتهم فكيف يتم إقصاء الله عن تصريف شؤون كونه؟ وإذا تمَّ إقصائه عن تصريف شؤون الأرض وما فيها من خلائق فلماذا نعيش في كونه ونتمتع بخيراته ونعمائه؟ فعلينا إذن أن نبحث عن كَوْنٍ آخر لإله من دونه نعيش في ظله طالما ننكر وجود الله الواحد الأحد الذي لا شريك له.

فالقرآنُ الكريمُ هو منهجُ الله لِلثَقَلَينِ ، فبه تخشعُ الكائناتُ لِرَبِّ العالمينَ {لو أنزلنا هذا القرآنَ على جبلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشعًا مُتصدعًا من خشيةِ الله وتلكَ الأمثالُ نضربُها للنَّاسِ لَعلَّهُم يتفكرونَ ، هُوَ اللهُ الذي لا إلهَ إلَّا هُوَ عَالِمُ الغيبِ والشهادةِ هُوَ الرحمنُ الرحيمُ ،هُوَ اللهُ الذي لا إلهَ إلَّ هُوَ الملكُ اَلْقُدُّوسُ السلامُ المؤمنُ المهيمنُ العزيزُ الجبارُ اَلْمُتَكَبِرُ سُبحانَهُ وتعالى عمَّا يُشركونَ ، هُوَ اللهُ الخالقُ البارئُ المُصَوِّرُ لَهُ الأسماءُ الحُسنى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السماواتِ والأرضِ وَهُوَ العزيزُ الحكيمُ}.(الحشر ، الآيات من: ٢١ إلى ٢٤)

ومنذُ أَنْ هبطَ آدمُ عليه السلام من الجنة إلى الأرض لم يتركه الله الخالق ، بل عَلَّمَهُ الأسماءَ كلَّها ليبدأ حياته الجديدة على الأرض وينظمها هو وذريته وفقَ تعاليمَ الله وكُتُبِهِ ورسلِهِ ، فجاءت الحياةُ البشريةُ بجماعاتها وأقوامها وقبائلها وشعوبها متدرجةً مع نمو ذرية بني آدم ، وهي تأخذ في مسارها تعاليم الله لآدم وذريته ، وباعتبار الإنسان هو سيدُ الكائنات على الأرض فكان له مؤسساته الدينية والثقافية والتاريخية والحياتية التي تنظم حياته ، كل ذلك منبثق من تعاليم الله للإنسان من خلال ما أرسله إليه من كُتبٍ سماوية ورسل. فنجد أنَّ الإسلام قد أضاء الدنيا بمبادئه وقيمه وتشريعاته وسُننه فأنشأ دَولةً إسلامية أنارت الأرض وشهد لها التاريخُ بذلك بما أنجزه العلماء المسلمون من نهضة علمية وفكرية وثقافية وحضارية في شتى التخصصات وهو ما تمثله الفترة الأولى من صدر الإسلام (القرون الخمسة الأولى/ عصور الازدهار الإسلامي) التي بدأ العالم المعاصر نهضته العلمية والثقافية والمؤسساتية في ضوئها منذ أن كانت الكنيسةُ تعيشُ عصورها المظلمة وسيطرتها على جميع مؤسسات الحياة في أوربا وتعذيبها لمن يخالفها تلك الكنيسةُ التي لم تُطبِقْ التعاليم السماوية وخضعت للأهواء الذاتية والرغبات الشخصية.

ومن ثَمَّ قامت الثوراتُ ضِدَّ الكنيسةِ ووجدَ الإنسانُ الأوربي ملاذه تحت شعار اللادينية أي العَلْمنية التي تقصي الله بتعاليمه الدينية الحقة والتي لا تخضع لإهواء الإنسان الذاتية المصلحية. فتخيَّلَ البعضُ أنَّ العَلْمانيةَ هي إحدى مُكتسبات وفتوحات الروح البشرية فلاذوا إليها وَسَنُّوا قوانينَ وضعية لينظموا بها مؤسساتهم الثقافية والتاريخية والحياتية متناسون رسالة الله إلى الأرض (القرآن الكريم) وما جاء به من قيم وأحكام وشرائع لم تشتملْ عليها الأديان السابقة ، فقد قال رسول الله ﷺ: "تَركتُ فيكم ما إنْ تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدًا كتابَ الله وسُنَّةَ رسوله"(رواه مسلم وابن ماجه وأبو داوود) وقال عليه الصلاة والسلام: "... إذا اِلْتَبَسَت عليكم الأمورُ كَقِطَعِ الليلِ المظلم فعليكم بالقرآن فإنَّه شافعٌ مُشَفَّعٌ وشاهدٌ مصدقٌ مَنْ جعلَه أمامه قاده إلى الجَنَّةِ ومَنْ جعلَه خلفه ساقَهُ إلى النَّارِ ، وهو أوضحُ دليلٍ على خيرِ سبيلٍ ، مَنْ قالَ بِه صَدَقَ ، ومَنْ عَمَلَ به أُجِرَ ، ومَنْ حَكَمَ به عَدَلَ"(رواه أبو سعيد الخضري/ المصدر الأربعون الودعانية).

وَشَتَّانَ بينَ القوانين الوضعية التي هي من صنع البشر والأحكام الشرعية التي شرعها الله للثقلين ، فالأولى تخضع للأهواء الذاتية والمصلحة الفردية فهي تُخْطِئ أكثر مما تصيب بخلاف أحكام الله الشرعية التي شرعها للعالمين، فقد أقصت العَلْمانيةُ اَللهَ عن إدارة شؤون الأرض ، وتجرأت في تعاليمها على الإساءة إلى رسول الله ﷺ ، وأوجدت العنصريةَ بين البشر ، وساعدت على انتشار الاحتكار والإلحاد مما أغضب الله فسلطَ علينا ثُلَّةً من

القوم يتحكمون في مقدرات الشعوب ويحاربون بها الله فصاروا أندادًا من دون الله يسعون جاهدين إلى هدم القيم والشرائع السماوية وتقليص البشر إلى المليار الذهبي بفايروس كورونا Covid- 19فهيهاتَ هيهاتَ ، والويلُ الويلُ من رب العالمين. فقد أزفت الآزفة، وإنَّ الدينَ عند الله الإسلامُ مصداقًا لقوله تعالة:{إِنَّ الدينَ عِنْدَ اللهِ الإسلامُ} (آل عمران، الآية: ١٩) وقوله تعالى: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيرَ الإسلامِ دينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنه وَهُوَ فِي الآخرةِ مِنَ الخاسرينَ}(آل عمران،الآية: ٨٥) ، فهنيئًا لمن تمسَّك بمنهج الله في دنياه وفاز به في الآخرة.

رابعًا - أثرُ العَلْمانيةِ على المنظومة التعليمية الدولية:

أخذَ الفكرُ العلماني يقتحم مكونات وعناصر المنظومة التعليمية ويشكلها منذ عصر الحداثة والتَّنَورِ ، فظهر تأثيره واضحًا في بناء المناهج التعليمية ، وبرامج إعداد المُعلمين ، والوسائل والأنشطة التعليمية ، والبيئات التعليمية تحت شعار التنور والحرية. فصارت قيمُ الحرية مطلقة غير مقيدة بالثوابت وغير مسؤولة مما انعكس على المُخرجات التعليمية، فأصبح الإنسانُ في المجتمع يمارس الحرية المطلقة فنراه يتجرأ على الثوابت السماوية والإساءة إلى الرسل ويدعو إلى الإلحاد والعنصرية والإباحية والإلْهَاء ، ويحتكر ويسيطر تحت مبدأ الحرية والتنور وهيمنة المادية الوجودية. فأنت حرٌ ما لم تضرْ فإذا أَضْرَرْت فأنت لست حُرًا لأنَّ الحريةَ مسؤولَةٌ ومُقيدةٌ ، وها هو الوضع في فرنسا وهولندا والدينيمارك والمكسيك وأمريكا أفضلُ دليلٍ على ذلك في الوقت الراهن.

فكيف يتمُّ بناءُ مُخرجاتٍ تعليمية خالية من عقيدة سماوية إسلامية صحيحة؟! وكيف بنا إذا وجدنا مُهندِسًا يابانيًّا عَلْمانيًّا من أكبر مهندسي العالم لا يؤمن بوجود الله يبني ثاني أكبر جسر في العالم فوق البوسفور وهدفه المادية الرأسمالية والشُهرة؟! فيلقي بنفسه من فوق الجسر مُنتحرًا أثناء الافتتاح فيذهبون إلى غرفته بالفندق فيجدونه قد تركَ خطابًا كَتَبَ فيه (ذُقْتُ كلَّ شيء في الحياة ولم أجدْ لها طعمًا وأردتُ أن أذوقَ الموتَ). وكيف بطبيب هدفه الأساسي أيضًا التكسب المادي والطاعة العمياء؟! فيقطعَ جسدَ إنسانٍ حُرٍ/ جمال خاشقجي دون رحمة وخوف من الله ، لأنَّه يفتقر إلى العقيدة الإسلامية الصحيحة. وكيف برئيس فرنسا ماكرون Macronالذي يحضُ على الإساءة إلى رسول الله محمدﷺ دونَ مراعاةِ أيَّةِ قِيَم أو مبادئ؟! وكيف بنا إذا رأينا بأعيننا رئيسَ أمريكا Trumpيقوم بميليشياته المُسلَّحة ليحاصر برلمانه ويقتحمه في حالةِ انقلابٍ فيقتل أبناء شعبه ، ذلك الكونغرِس Congressالذي قَنَّنَ له القوانين والتشريعات الوضعية ليحكم في ضوئها ، فلم يراعِ مبادئ أية عقيدة سماوية حتى ديموقراطية الدستور الوضعي عنده؟! كل ذلك مما

اكتسبه من حريةٍ مطلقة وعَلْمانيةٍ برجوازية دنيوية لادينية. وهكذا الأمر بالنسبة للمعلم الذي يُعَلِّمُ تلاميذَه مفاهيمَ العلمانية فبدون شك يُنتج مُخرجات تعليمية ليس لديها الحرية المقيدة بالقيم الثابتة الصحيحة فيختلُ المجتمعُ الإقليميُ والدوليُ وينهار لأنَّه بعيدٌ عن تعاليم منهج الله (القرآن الكريم) الذي أُنزِلَ للعالمين كافةً ، والذي فيه صلاح البشرية جمعاء في الدنيا والآخرة. فيقولُ اللهُ تَبارك وتعالى: {قُلْ هَلْ نُنبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أعمالًا ، الَّذينَ ضَلَّ سَعْيُهُم فِي الحياةِ الدنيا وهُم يَحْسبونَ أنهم يُحسنونَ صُنْعًا ، أُوْلَئِكَ الَّذينَ كفروا بآياتِ ربِّهم وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أعمالُهم فلا نُقيمُ لهم يومَ القيامةِ وزنًا ، ذَلِكَ جزاؤهم جَهَنَّمُ بما كفروا وَاتَّخَذُوا آياتي وَرُسُلِي هُزُوًا ، إنَّ الَّذينَ آمنوا وَعَمِلوا الصالحاتِ كانتْ لهم جنَّاتُ الفردوسِ نُزُلًا خالدينَ فيها لا يبغونَ عنها حِوَلًا ، قُلْ لو كانَ البحرُ مِدَادًا لكلماتِ رَبِّي لَنَفِدَ البحرُ قبلَ أنْ تَنْفَدَ كلِماتُ رَبِّي وَلَو جِئنا بمثلِهِ مَدَدًا ، قُلْ إنَّما أنا بَشَرٌ مثلُكم يُوحى إلَيَّ أنَّما إلَهُكُمْ إلهٌ واحدٌ فَمَنْ كانَ يرجوا لِقاءَ رَبِّهِ فليعملْ عملًا صالحًا ولا يُشْرِكْ بِعِبَادِةِ رَبِّهِ أَحَدًا} .(الكهف، الآيات: ١٠٣ – ١١٠)

ودعونِ الآنَ أتساءلُ معكم بالعقل والمنطق أيهما أصلح وأفضل للبشرية: منظوماتٌ تعليميةٌ تُبنى في ضوء منهج الله الذي أعدَّهُ للناس كافةً وما يتضمن من مبادئ وتشريعات وأحكام ومعارف ومفاهيم وقيم ثابتة وأخلاق مُثلى؟ أَمْ منظوماتٌ تعليميةٌ تُبنى على قيم مطلقة غير مسؤولة وقوانين وضعية تُقصي الله عن إدارة شؤون كونه وتؤدي إلى العنصرية وتدعو إلى الإلحاد والإساءة إلى الرسل وتتجرأ على الثوابت السماوية وتحضُّ على الاحتكار والسيطرة على الغير؟ مما أغضب الله تبارك وتعالى .

ومن ثَمَّ توصي الدراسةُ الراهنةُ بالأخذ بمنهج الله المُرْسَل إلى البشرية جمعاء وهو القرآن الكريم في بناء المنظومات البشرية ولاسيما المنظومة التعليمية ليتم الحصول على مُخرجات تعليمية سليمة وصحيحة نافعة لعمارة الأرض وفق منهج الله.

المراجع

أولًا المراجع العربية:

القرآنُ الكريمُ.

السُنَّةُ الشريفةُ.

أركون ، محمد. (١٩٩٦) ، العلمنة والدين، ت هاشم صالح، ط ٣ ، دار الساقي، لندن: ص ٩ و ١٠

الأربعون الودعانية ، المصدر ، ص ٥ hdith.com

الخليج ، صحيفة. (٢٠٠٩) ، "أساليب التعليم في صدر الإسلام" ، ملحق الدين للحياة ، ٢٣/ أبريل https://www.alkhaleej.ae

دواق، الحاج أوحمنة. (٢٠١٤) ،في مفهوم العلمانية ومبانيها وخصائصها ، مقالات ، ١٤/ أبريل. https://www.mominoun.com/articles/87%D8%A7-738

شاكر، أسماء. (٢٠٢٠) ، مكونات منظومة التدريس https://e3arabi.com/

صبري ، ماهر إسماعيل. ٢٠١٠) ، المناهج ومنظومة التعليم) ، الطبعة الثالثة منقحة ، سلسلة الكتاب الجامعي العربي ، مكتبة الرشد ، الرياض: ص ٣٨ – ٤٠.

عمارة، محمد. (٢٠٠٣) ، الشريعة الإسلامية والعلمانية الغربية ، ط١ ، دار الشروق، القاهرة: ص ١٧.

العبيدي ، إبراهيم. (٢٠١٨)، مبادئ التعليم – عناصر العملية التعليمية ،١٩ يوليو https://mawdoo3.com/%

العظمة، عزيز. (١٩٩٨) ، العلمانية من منظور مختلف، مركز دراسات الوحدة العربية، ط ٢ ، بيروت: ، ص ١٧.

المسيري، عبد الوهاب. (٢٠٢٠) ، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، المجلد الأول، ط ٨ ، دار الشروق، القاهرة:

المسيري، عبد الوهاب. والعظمة،عزيز. (٢٠٢٠) ، العلمانية تحت المجهر، حوارات لعصر جديد،ط ٥ ، دار الفكر، دمشق ، سوريا:

ثانيًا – المراجع الأجنبية:

- LaroussE pratique: Larousse Italie ,juin2003, p 1348